

## ما الفلسفة؟

إن تحليل مكونات مصطلح «فلسفة الدين» يكشف أنه يتكون من مصطلحين كبيرين هما «الفلسفة» و«الدين». ولذلك اقتضى البحث في مفهوم «فلسفة الدين» وجوب فهمنا لأصله. ألا وهي «الفلسفة». والوقوف على ماهية مفهوم «الدين» في حد ذاته باعتباره أحد المفاهيم الجيدة التي يمكن بحثها فلسفياً.

فما الفلسفة؟ وما الدين؟

سوف نعرف الفلسفة فقط من خلال المدخل الذي يساعدنا على بيان المقصود بمصطلحنا الأساسي وهو «فلسفة الدين».

إذا كانت الفلسفة هي المضاف في التركيب اللغوي لمفهوم «فلسفة الدين» والدين هو المضاف إليه. فإن هذا يعطيها الدور الفاعل في المفهوم. ويجعل المفهوم ينتمي برمته إلى الحقل الفلسفي لا إلى المجال الديني. والفلسفة هي «إعمال للفكر في واقع الإنسان وواقع العالم وواقع الله...» أو هي «محاولة العقل الإنساني تكوين علم كلي بالوجود على كل مستوياته: الألوهية، والإنسان، والكون. من أجل تكوين رؤية شاملة للقوانين العامة التي تحكم الوجود، وبنيتها، مقاصده، وتسعى إلى الإجابة عن أسئلة الإنسان الأزلية: الإنسان.. من أين؟.. وإلى أين؟ العالم.. ما حقيقته؟.. وإلى أين يسير؟ الوجود.. لم كان؟.. ولم لم يكن بالأحرى عدماً؟ الله.. هل هو كائن؟.. وماذا يريد منا؟

ومن هنا فالفلسفة ما هي إلا حركة سير الإنسان نحو محاولة معرفة الحقيقة. إنها مسار الفكر الذي لا يكتفي بأن يفكر في المادة والحس، بل يقفز إلى عالم المجرّد. لكي يكتسب الوجود معنى يمكن أن يعيش الإنسان من أجله.

والفلسفة لا تدعي امتلاك الحقيقة المطلقة أو اليقين التام. فهي قد تصل إلى جزء من الحقيقة أو أجزاء منها. وقد تصيب وقد تخطئ. وقد تتفق مع الدين أو تختلف معه. وربما يختلف منهج الدين عن منهج الفلسفة في بعض الحالات. وكذلك الموضوع والغاية. لكنهما قد يصلان إلى نتائج متشابهة أحياناً. ونتائج متباينة أحياناً أخرى. وكل هذا يتوقف على الطبيعة الخاصة لكل فلسفة من الفلسفات. كما يتوقف على طبيعة الدين نفسه عند كل طائفة من الطوائف.

إذا الفلسفة هي إعمال العقل في كل شيء، في الوجود الطبيعي، والبشري، في المعرفة وآلياتها المختلفة، في الأخلاق ومصادر الإلزام الخلقي، في الدين، الفن، والقانون، والسياسة.

الفلسفة هي محاولات جادة وخبرات تراكمية لفهم الأنا، والآخر، والعالم من حولنا. ومع ذلك يصعب تعريف الفلسفة تعريفاً جامعاً مانعاً، أي جامعاً لخصائصها وعناصرها وغاياتها. مانعاً لدخول مناهج غريبة عنها، وذلك للطابع الشخصي الواضح فيها. إذ إن كل فيلسوف يعرف الفلسفة بحسب مذهبه الفلسفي الذي ينتمي إليه. كما قال رسل، أو بحسب نظره عصره إلى الفلسفة. وفي ذلك يرى بعض الباحثين أن صعوبة تعريف الفلسفة يرجع إلى عاملين أساسيين:

أولهما: أن الفلسفة يختلف معناها باختلاف المذاهب الفلسفية المتباينة. وبناء عليه فإن التعريف الذي يقدمه المذهب التجريبي للفلسفة يرفضه المذهب المثالي. والتعريف الذي يقول به الفيلسوف الهيغلي يرفضه الفيلسوف البرجماتي. وثانيهما: أن معنى الفلسفة نفسه يختلف باختلاف العصور التاريخية، فالتعريف الذي كان سائداً على سبيل المثال - في العصر اليوناني أو العصر الوسيط - تغير في العصور الحديثة، كما تغير في الفلسفة المعاصرة. فإذا كانت الفلسفة في العصر اليوناني هي إمكان الوصول إلى

معرفة يقينية. وكانت - أيضا - بحثا عن المتعة العقلية الخالصة بغض النظر عن أي جانب عملي. فإنها في فترات أخرى من العصر اليوناني نفسه. وهو عصر الرواقيين والأبيقوريين. كانت المدبرة لحياء الإنسان.

وفي العصور الوسطى كانت الفلسفة خادمة للدين، أي إن مهمتها الأولى والأساسية البرهنة على صحة القضايا الدينية وتبريرها عقليا.

وكانت عند الفلاسفة المسلمين أداة للتوفيق بين العقل والنقل أو الحكمة والشريعة. وفي الفلسفة الحديثة رفض فلاسفتها وصاية الدين على الفلسفة. وعمدوا إلى تحرير العقل. فتمثلت الفلسفة نقيضا للدين في معظم الأحيان.

وفي الفلسفة المعاصرة بدأت الفلسفة عند البرجماتيين وسيلة أو ذريعة لتحقيق المنافع العملية. كما تجلت عند ماركس والماركسيين طريقة للعمل على تغيير العالم. وتغيير نظمه القائمة. وتخليص الإنسان من الظلم. وطغيان الخرافات والأساطير. وعلى الرغم من ذلك. فإنه يمكننا أن نضع بعض التعريفات العامة التي تقرب معنى الفلسفة للقارئ. ولا يشعر حياء مفهومها بالاعتراب. فلفظ «فلسفة» هو لفظ يوناني. مكون من مقطعين «فيلو» و«سوفيا» المقطع الأول يعني «حب» أو «محبّة». والثاني يعني «الحكمة». ومن ثم تصبح الفلسفة حسب هذا المعنى اللفظي «محبّة الحكمة» والحكمة عند اليونان هي فن العيش. وكيفية مواجهة الحياة. وهي - في الوقت ذاته - نوع من المعرفة يهدف إلى الوصول إلى المبادئ الأولى والعلل البعيدة لكافة الظواهر.

واشتهرت الفلسفة في العصر اليوناني بأنها العلم بأعم معانيه: النظري من طبيعيات ورياضيات والهيئات. والعملية من أخلاق وسياسة واقتصاد. فهي علم الكل. علم العلة الأولى والغايات العليا. وهي علم يحمل قيمته في ذاته. ولا يتوسل به لهدف آخر غيره.

وان كان هذا المعنى قد تغير على أيدي الرواقيين والأبيقوريين. حيث إنهم راعوا فيه الناحية العملية لنتائج التفكير الفلسفي. وقيمة النظريات العامة التي تشرح الغاية من حياة الإنسان. ومن ثم اقتربت الفلسفة اقتربا كبيرا من الأمور الدينية. فصارت في هذا العصر اليوناني المتأخر تعنى بمعرفة الأمور الإلهية جنبا إلى جنب بمحاولتها إدراك المعارف البشرية. كذلك اعتنت بالتفكير في الموت وفيما بعد الموت. ولذلك نجد دعوات كثيرة في هذا العصر إلى ضرورة التشبه بالألوهة بقدر ما تسمح به الطبائع البشرية وقام المفهوم المسيحي للفلسفة في العصور الوسطى على أنها محاولة للتوفيق بين الوحي والعقل. والرغبة في جعل سلطة العقل القديم وسلطة الدين الجديد على وفاق واتساق. والبرهنة على أن الحقائق الموحى بها من الله ليست إلا تعبيرا عن العقل. ومن ثم كان الإيمان ضروريا للعقل وشرطا لصحة تفكيره كما قال القديس أنسلم.

وفي المفهوم الإسلامي حدها الكندي بأنها «علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان، لأن غرض الفيلسوف من علمه إصابة الحق وفي عمله العمل بالحق» ويذكر الكندي التعريف اللفظي الاشتقائي للفلسفة في رسالة الحدود. كما يذكر تعريفات أخرى للفلسفة. ومنها: «الفلسفة هي التشبه بأفعال الله تعالى. بقدر طاقة الإنسان. أرادوا أن يكون الإنسان كامل الفضيلة». ومبتغى الفلسفة عند الكندي هو علم الأشياء بحقائقها، ولذلك فلا تعارض بينها وبين الدين فالفلسفة علم الحق والدين كذلك. وهو التعريف ذاته الذي نجده عند أبي نصر الفارابي إذ يقول: «الحكمة معرفة الوجود الحق».

والتعريف نفسه نجده عند الشيخ الرئيس ابن سينا الذي يرى أن الفلسفة هي «الوقوف على حقائق الأشياء كلها سواء أكان وجودها باختيارنا أم خارجا عن إرادتنا. وهي نظرية وعملية. ويضع تحت النظرية الطبيعيات والرياضيات والإلهيات. وتحت العملية تدبير المدينة وتدبير المنزل والأخلاق» أي إن الفلسفة عند الفلاسفة المسلمين هي معرفة الأشياء بحقائقها. وهو الأمر الذي ظل يتردد في الفلسفة الإسلامية حتى عصر أبي الوليد بن رشد ( ١١٢٦ - ١١٩٨ م) أخر فلاسفة العرب الذي أفصح في كتابه «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» عن أن الفلسفة حق والدين حق. و«الحق ل يصاد الحق بل يوافقه ويشهد له».

وأن هدف الفلسفة الوقوف على معرفة الخالق الحق، حيث يقول: «إن فعل الفلسفة ليس شيئاً أكثر من النظر في الموجودات. واعتبارها. من جهة دلالتها على الصانع. أعني من جهة ما هي مصنوعات. فإن الموجودات إنما تدل على الصانع بمعرفة صنعها. وإنه كلما كانت المعرفة بصنعها أتم. كانت المعرفة بالصانع أتم، ومن ثم كانت الفلسفة عند ابن رشد هي صاحبة الشريعة، والأخت الرضية. وهما المصطحبتان بالطبع. المتحابتان بالجواهر والغريزة».

وفي الفلسفة الحديثة اختلف مفهوم الفلسفة اختلافاً بيننا، حيث أصبحت بحثاً عن أنسب المناهج للوصول إلى المعارف المختلفة. فقد اتجهت الفلسفة الحديثة إلى البحث في المعرفة، واهتمت بدراسة طبيعتها. للوقوف على حقيقة العلاقة التي تربط بين قوى الإدراك والأشياء المدركة. فكان الجدل العنيف الذي دار بين مذاهب المثاليين ومذاهب الواقعيين، ودارت الكثير من المباحث الأبيستمولوجية حول أدوات المعرفة ومصادرها. فكان النزاع بين مذاهب العقليين والحدسيين من ناحية ومذاهب التجريبيين والوضعيين من ناحية أخرى. بل امتد الجدل عند بعض المحدثين حول إمكان قيام المعرفة الصحيحة. فكان التعارض بين أصحاب مذهب الشك ودعاء مذهب التيقن. وهكذا عكست الفلسفة الحديثة الآلية. فإذا كانت الفلسفة القديمة قد اهتمت بالوجود ونظرت إلى المعرفة من خلاله. فإن فلسفة المحدثين قد اهتمت بالمعرفة ونظرت إلى الوجود من خلالها.

أما مفهوم الفلسفة في الفلسفة المعاصرة فقد تحول - بشكل كبير - إلى ذلك الفرع من المعرفة الذي يهتم بدراسة الإنسان في وجوده الواقعي. حيث تتميز الفلسفة المعاصرة بوجه عام بالنزوع إلى مقاومة الآلية. واحتضان النزعة الإنسانية، والنزوع من الاعتقاد بأن الطرق المادية، وتطبيقات العلوم الإنسانية تتكفل بكل جميع المشاكل التي تقلق الإنسان. ويعود هيدجر بالفلسفة إلى أصولها اليونانية القديمة، فيرى أن «فيلسوفياً» لا تعني حب الحكمة، بل يرى أن «السوفيا» هي الإنسان الذي يداني الأشياء مداناً القربى والألفة. ويدرك طبيعتها وحراكها ووظائفها وقوانينها. أما «الفيلو» فمعناها الشركة مع الأشياء. وبذلك تصبح الفلسفة في معناها الجديد فن الشركة مع أشياء الوجود.

يمكن تلخيص مواقف الاتجاهات المعاصرة في النظر إلى الفلسفة بأنها علم الوجود العام الكلي الذي يهتم بتحديد مكانة الإنسان في هذا الوجود الكلي، وكيفية تحقيق الرفاه العام لهذا الإنسان. أو إنكار هذا الوجود العام والقتصار على دراسة الواقع المحسوس كما عند التجريبيين باختلاف توجهاتهم. أو النظر إلى الفلسفة على أنها مجرد منهج هدفه تحليل اللغة تحليلاً منطقياً كما عند الوضعيين المناطقة. أو أنها البحث الذي يهدف إلى تغيير العالم وخلق مستقبل جديد للبشرية كما ذهب الماركسيون. أو أنها البحث الذي يهدف إلى النظر في أنسب الوسائل أو الذرائع لتحقيق المنافع العملية. أو هي النظر في أنسب المناهج للتفسير، والضم. والتأويل. وإعادة القراءة كما عند الهيرمينوطيقيين أو البنيويين أو التفكيكيين أو دعاء ما بعد الحداثة بصفة عامة.